

دون حصنه انظري يانفس بأى بدن تقفين بين يدي الله وبأى لسان
تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب جوابا واعمل بقية عمرك في أيام
قصار لأيام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن وانصب لدار
نعيم وخاود واعلم أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد
خاف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتمطى
يانفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد
رضى بالنار فهذه طريق القوم في معاتبة نفوسهم ومقصودهم منها التذية
والاسترعاء ومن أهمل المعاتبة لم يكن لنفسه حراعا ويوشك أن لا يكون
الله عنه راضيا *

كتاب التفكير

﴿ فضيلة التفكير ﴾

اعلم انه قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع
لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا
خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا) وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ان قوماً تفكروا في
الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم (تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا
فِي اللَّهِ) وروى في السنة (تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ) وقال حاتم
(من العبرة يزيد العلم ومن الذكركر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف)

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : استمعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط
بالفكر . ثم أن ثمرة الفكر هي العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة وإذا
حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت
أعمال الجوارح فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها لأنه الذي
ينقل من المكاره الي المحاب ويهدي الى استثمار الموم وتاج
المعارف والفوائد *

﴿ بيان مجارى الفكر ﴾

اعلم أن أنواع مجارى الفكر أربعة : الطاعات . والمعاصى . والصفات
المهلكات . والصفات المنجيات *

(فأما المعاصى) فينبغى أن يفتش الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه
السبعة ثم بدنه هل هو في الحال ملابس المعصية بها فيتركها . أو لا يسها
بالأمس فيتداركها بالترك والندم . أو هو ممرض لها في نهاره فيستهد
للإحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول انه ممرض للغيبة والكذب
وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعنى الى
غير ذلك من المكاره فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى
ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها فيحترز منها ويتفكر
في سمعه أنه يصغى به الى الغيبة والكذب وفضول الكلام والى اللغو وأنه
ينبغى أن يحترز عنه ويتفكر في بطنه أنه انما يعصى الله تعالى فيه بالأكل
والشرب اما بكثرة الأكل من الحلال وذلك مكروه عند الله واما بأكل

الحرام والشبهة فيتفكر في الاحتراز عن مداخله ويتفكر في طريق الحلال وموارده ويقرر على نفسه ان العبادات كلها ضائفة مع أكل الحرام وان أكل الحلال هو أساس العبادات كلها فهكذا يتفكر في أعضائه حتى يحفظها * (وأما الطاعات) فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير . أو كيف يجبر نقصانها بالنوافل * ثم يرجع الى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول أن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة وانستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالمة القرآن والسنة فلم لا أفعله وأنا قادر على أن أنظر الى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه فلم لا أفعله وكذلك يقول في سمعه انى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم فمالى أعطله وقد أنعم الله علىّ به وأودعني لأشكره فمالى أ كفر نعمه الله فيه بتضييعه وتعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول انى قادر على أن أتقرب الى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد الى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح وعمر والعالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى فانى مستغن عنه ومهما احتجت اليه رزقى الله تعالى مثله وان كنت محتاجا الآن فانا الى ثواب الايثار أحوج منى الى ذلك المال وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن

دوابه وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغبه في البدار الى تلك الطاعات ويتفكر في اخلاص النية فيها وقس على هذا سائر الطاعات *

(وأما الصفات المهلكة التي محلها القلب) فيمرقها مما تقدم وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والمعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات ويتفكر في طريق الملاج لها مما سلف ذكره *

(وأما المنجيات) فهي التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق اليه والخشوع والتواضع له مما تقدم ذكره فيتفكر كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة الى الله تعالى فاذا افتقر الى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار فاذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم فليقتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم واذا أراد أن يستشير من قلبه حال الشكر فلينظر في احسان الله اليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه واذا أراد حال

المحبة والشوق فليتكفر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنمه وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال القبر وحياته وعقابه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في المناقشة في الحساب والمضايقة في النقيير والقطيع ثم ليحضر في قلبه صورة جهنم وأهوالها وسلاسلها واغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وانهم كلما فضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تفيظاً وزفيراً وهلم جزاً الى جميع ما ورد في القرآن من شرحها وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر الى الجنة ونعيمها وأشجارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملئها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العاوم التي تشر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة *

وأما ذكر مجامع تلك الأحوال فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فان القرآن جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين فيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج الى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر

عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة *
وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتي جوامع
الكلم وكل كلمة من كلماته بجزر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل
لم ينقطع فيها نظره طول عمره *

﴿ بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى ﴾

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخالقه وكل
ذرة من الذرات ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله
وعظمته واحصاء ذلك غير ممكن فلندكر من الموجودات ما يدرك بحس
البصر فإنه الأقرب إلى الألفهام وذلك من الآيات التي حث على التفكير
فيها القرآن الكريم *

﴿ آية الانسان ﴾

من آياته تعالى الانسان المخلوق من النطفة . وأقرب شيء اليك نفسك
وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف
على عشر عشيره وأنت غافل عنه . فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها
كيف تطمع في معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في
كتابه العزيز فقال ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وذكر أنك مخلوق من
نطفة قدرة فقال ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ
خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾

وقال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾
 وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾
 وقال تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ
 مَقْلُوبٍ ﴾ ثم ذكر تعالى كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغنة والمضغنة عظاما
 فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي
 قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ الآية . فتكرير ذكر النطفة في الكتاب
 العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكير في معناه فانظر الآن الى النطفة وهي
 قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأتنت كيف
 أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب . وكيف جمع بين الذكر
 والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة
 الى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف
 استجاب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ثم كيف خلق
 المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وكبر وكيف جعل
 النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغنة ثم كيف قسم
 أجزاء النطفة وهي متشابهة ، متساوية الى العظام والأعصاب والعروق والأوتار
 واللحم . ثم كيف ركب من اللحم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة
 فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ثم مد
 اليد والرجل وقسم رؤسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأظفار ثم كيف
 ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم

والثانة والامعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص . وفي آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات ما لو ذهبنا الى وصفها لا نقضى فيها الاعمار فانظر الآن الى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير . وطويل ومستدير ومجوف ومصمت . وعريض ودقيق . ولما كان الانسان محتاجاً الى الحركة بجملة بدنه وبعض أعضائه مقتراً للتردد في حاجاته لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة . وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أُنبتها من أحد طرف العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه . وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار الانسان ان أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها فأدلف بعضها الى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها ما يخص القحف واللحى الأعلى واللحى الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركباً للرأس ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة الى منتهى عظم المعجز من أربع وعشرين خريزة ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام

الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام المعجز ثم عظام الفخذين
والساقين وأصابع الرجلين وتمداد ذلك بطول فانظر كيف خلق جميع
ذلك من نطفة سخيطة رقيقة والقصد أن ينظر في مدبرها وخالقها أنه كيف
قدرها وخالف بين أشكالها وخصصها بمددها المخصوص لأنه لو زاد
عليها واحداً لكان وبالاً على الانسان يحتاج الى قلمه ولو نقص منها
واحداً لكان نقصانا يحتاج الى جبره ثم أمر الأعصاب والعروق والأوردة
والشرايين وعددها ومنايتها وانشعابها أعجب من هذا كله وشرحه بطول
وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قدرة قبرى من هذا صنعه في قطرة ماء
فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها واختلاف صورها وتفاوت مشارقتها
ومغاربها فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم
بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل
لانسبة لجميع ما في الأرض الى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ﴿أأنتم
أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾
فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت اليه ثانياً وتأمل أنه لو
اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة سمماً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو
علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جليداً أو شعراً هل
يقدرون على ذلك . بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد
أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه . فالعجب منك لو نظرت الى صورة
تألق النقاش في تصويرها لكثير تعجبك منه وأنت ترى النطفة القادرة

كانت معدومة فخلقها خالقها في الأضلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها
 فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزائها المتشابهة
 الى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين
 ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون
 ذلك سبب بقائها وجعلها سمیعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساساً
 لبدنها والبطن حاوياً لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين
 ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ثم حماها بالأجفان لتسترها
 وتحفظها وتصلبها وتدفع الأذى عنها . ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة
 السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر اليها ثم شق أذنيه
 وأودعها ماء مراً ليحفظ سمها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الاذن
 لتجمع الصوت فترده الى صماخها ولتحس بديب الهوام اليها . وجعل فيها
 تحريقات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فينتبه من
 النوم صاحبها اذا قصدتها دابة في حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه
 وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق
 الروائح على مطاعمه وأغذيته . وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء
 لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومعرباً
 عما في القلب وزين الفم بالأسنان وتكون آلة الطحن والكسر والقطع
 فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس
 متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها

لتتطابق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام ثم خلق الخنجرة
 وهياها لخروج الصوت وخلق لسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع
 الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها
 ثم خلق الخناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة
 الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه
 صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن
 بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين
 الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب بركة الشعر واستقواس الشكل
 وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل
 مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لأحالة الغذاء الى الدم والمثانة
 لقبول الماء حتى تخرجه في طريق الاحليل والعروق تخدم الكبد في ايصال
 الدم الى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولها لتمتد الى المقاصد
 وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل
 ووضع الأربعة في جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع . وبهذا
 الترتيب صلحت اليد للقبض والاعطاء ثم خلق الأظفار على رؤسها زينة
 للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تتقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي
 لا تتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة ثم هدى اليد الى موضع
 الحك حتى تمتد اليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب ولو استعان
 بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من

النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث فسببها ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ثم انظر مع كمال قدرته الى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كانه عاقل بصير بما يحتاج اليه ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء كيف هداه الى التمام الثدي ثم لما كان بدنه سخيلاً لا يحتمل الاغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرت والدم سائغاً خالصاً . وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأثبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتح في حمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً فان الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر الى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الاسنان الى تمام الحولين لانه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن واذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج الى طعام غليظ ويحتاج الطعام الى المضغ والطحن فأثبت له الاسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها فسببها كيف أخرج تلك المظام الصلبة في تلك اللثة اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه فلم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل فصار مرهقاً . ثم شاباً . ثم كهلاً . ثم شيخاً اما كفوراً أو شكوراً مطيعاً أو

عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من
من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه
فجعلناه سميماً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ فانظر
الى اللطف والكرم ثم الى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية
والمعجب كل المعجب ممن يرى خطا حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه
فيصرف جميع همته الى التفكير في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه
وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكل
صنفته وأحسن قدرته . ثم ينظر الى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم
يغفل عن صانعه ومصوره فلا يدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته فهذه
نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك
وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك
وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهى فتجامع
وتغضب فتقاتل والبهايم تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصية الانسان التي
حجبت البهايم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض
وعجائب الآفاق والأفانفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين
ويحشر في زمرة النبيين والصدّيقين مقرّبا من حضرة رب العالمين وليست
هذه المنزلة للبهايم ولا لانسان رضى من الدنيا بشهوات البهايم فانه شر من
البهايم بكثير إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم
عطاها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً . وإذا

عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ثم في أنهارها
وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها الى ملكوت السموات *

﴿ آية الأرض ﴾

من آياته تعالى أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلاً فجاءها
وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وأرسى فيها الجبال
وتادها لتمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى عجز الأدميون عن بلوغها
جميع جوانبها وقد أكثر تعالى في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في
عجائبها فظهرها مقر الأحياء وبطنها مرقد الاموات قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ
يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴾ فانظر الى الأرض وهي ميتة فإذا أنزلنا
عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبت عجائب النبات وخرجت منها
أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات
الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسأل الأنهار
بجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً
صافياً زلالاً وجعل به كل شيء حي فأخرج به فنون الأشجار والنبات من
حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة
الأشكال والألوان والطعوم والصفات والروائح يفضل بعضها على بعض في
الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة فان قلت أن اختلافها
باختلاف بذورها وأصوحتها فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بمناقيد الرطب ومتى
كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة ثم انظر الى أرض

البرادى وقتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر الى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يندى وهذا يقوى وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا يفرح وهذا ينوم فلم تنبت من الارض ورقة ولا تبنة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته الى عمل مخصوص ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لا تقضت الايام فى وصف ذلك فيكفيك من كل نبذة يسيرة تدل على طريق الفكر فهذه عجائب النبات *

﴿ آية أصناف الحيوانات ﴾

اعلم أن من آياته تعالى أصناف الحيوانات وانقسامها الى ما يطير والى ما يمشى وانقسام ما يمشى الى ما يمشى على رجلين وعلى أربع وعلى عشرة وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ثم انقسامها فى المنافع والصور والاشكال والاخلاق والطباع فانظر الى طيور الجو والى وحوش البر والى البهائم الالهية ترى فيها من العجائب مالا تشك معه فى عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقرة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهى من صغار الحيوانات فى بنائها بيتها وفى

جمعها غذائها وفي ألفها زوجها وفي إدخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها الى حاجاتها لم تقدر على ذلك . وكل يشهد بشكائه وصورته وحر كته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب والمقول فضلا عن سائر الحيوانات *

وهذا الباب أيضا احصر له فان الحيوانات وأشكالها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لانها بكثرة المشاهدة . نعم اذا رأى حيوانا ولو دودا - تجدد تعجبه . وقال : سبحان الله ما أعجبه والانسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الانعام التي ألفها ونظر الى أشكالها وصورها ثم الى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباسا لخلقها وكنائنا لهم في ظنهم واقامتهم وآنية لاشربتهم وأوعية لاغذيتهم وصورانها لاقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للثقيل قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استمانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف برؤيته والاقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أنشئ

على نفسه وانما غاية معرفتنا الاعتراف بالمجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن
يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته

* آية البحار *

من آياته تعالى البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض وفيها من عجائب
الحيوان والجواهر اصناف ما تشاهده على وجه الارض كما أن سمته اصناف
سمعة الارض انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفه تحت الماء وانظر
كيف أنبت المرجان من صم الصخور ثم تأمل ما عداه من العنبر واصناف
النفائس التي يقدفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الى عجائب السفن كيف
أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطالبا الاموال وغيرهم
وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم *

وأعجب من ذلك كله الماء ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة
الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الاجزاء كانه شئ واحد
لطيف التركيب سريع القبول للتطبيع به حياة كل ما على وجه الارض من
حيوان ونبات فلو احتاج المبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن
الارض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من اخراجها
لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا في اخراجها *

فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر
ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء اذا احتاج الى شربها أو الاستفراغ عنها
بذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والانهار والآبار والبحار ففيها

متسع للذكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة لسان
حالمها مفصحة عن جلال بارئها معرفة عن كمال حكمته *

﴿ آية الهواء وعجائب الجو ﴾

ومن آياته تعالى الهواء اللطيف . فان شاء جعله نشرًا بين يدي رحمته
كما قال سبحانه ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ فيصل بحركته روح الهواء الى
الحيوانات والنباتات فتستمد للنماء . وان شاء جعله عذابا على العصاة من خلائقه
كما قال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ
النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴾ *

ثم انظر الى عجائب الجو وما يظهر فيه من الفيوم والرعود والبروق
والأمطار والثاوج والشهب والصواعق ففى عجائب ما بين السماء والأرض
وقد أشار القرآن الى جملة ذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ ﴾ وهذا هو الذى بينهما وأشار الى تفصيله فى مواضع
شتى حيث قال تعالى ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وحيث
تهرض للرعده والبرق والسحاب والمطر . فتأمل السحاب الكثيف المظلم
كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخافه الله تعالى إذا
شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل الماء الثقيل وممسك له فى جو السماء
الى أن يأذن الله فى إرسال الماء وتقطيع القطرات حتى يصيب الأرض
قطرة قطرة فلو اجتمع الألوان والآخرون على أن يخافوا منها قطرة لعجزوا
وكل ذلك من فضل الجبار المتأدرا لا إله إلا هو *

(١٦ - موعظه - فى)

﴿ آية السموات ﴾

ومن آياته تعالى ملكوت السموات وما فيها من الكواكب وقد عظم الله تعالى أمر السموات والنجوم في كتابه فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع وكلم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ وقد علمت أن عجائب النطفة القدرية عجز عن معرفتها الألوان والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ وأثنى على المتفكرين فيه فقال ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فارفع رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وطلوعها وغروبها وشمسها وقرها واختلاف مشارقتها ومفاربها ودورها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغيُّر في سيرها بل تجري جميعاً في منارل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طيَّ السجل للكتاب . وتدبر كثرة كواكبها واختلاف ألوانها وكيفية أشكالها ثم انظر إلى مسير الشمس في فلسكها في مدة سنة ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة وانظر إلى ايلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وادخله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر كيف أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة

من فوقها وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشر جزء من
أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر وعلى الجسلة فما من كوكب من
الكواكب إلا والله تعالى فيه حكم كثيرة . وكل العالم كبيت واحد والسماء
سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنيّ فتراه مزوقاً بالصبيح موهّاه
بالذهب فلا ينقطع تسجبتك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك
وأنت أبداً تنظر الى هذا البيت العظيم والى أرضه والى سقفه والى هوائه
والى عجائب أمتعه وعرائب حيواناته ثم لا تتحدث فيه ولا تلمت بقلبك
اليه ليس لك هم إلا شهوتك اشتغلت بأنواع الفرور وغفلت عن النظر في
جمال ملكوت السموات والأرض . فاستكثر من معرفة عجيب صنع الله
تعالى لتكون معرفتك بجلاله وعظمته أتم . والله الملمم *

كتاب ذكر الموت وما بعده

﴿ فضل ذكر الموت ﴾

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ
الذَّاتِ ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ
الدُّنُوبَ وَيَزِيهِدُ فِي الدُّنْيَا ﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿ كَفَى بِالْمَوْتِ
وَاعِظًا ﴾ وعنه ﴿ أَكْيَسُ النَّاسِ أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدَّهُمْ اسْتِعْدَادًا
لَهُ أَوْلِيكَ هُمْ الْأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الْآخِرَةِ ﴾
وعن عبد الله بن مطرف قال : ان هذا الموت قد نعص على أهل